

تفسير سورة الحجر

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رَبُّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾

ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبَعُوا وَيَلْبَسُوا الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ﴿٣﴾﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور.

وقوله تعالى: ﴿رَبُّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية: إخبار عنهم أنهم سيدمرون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا مع المسلمين في الدار الدنيا. وقيل: المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمنا. وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذُ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ قَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]. وقال ابن جرير: كان ابن عباس وأنس بن مالك يتاولان هذه الآية: ﴿رَبُّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار. فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا. فيغضب الله لهم بفضل رحمته، فيخرجهم، فذلك حين يقول: ﴿رَبُّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام! فقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها. فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا. قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ رَبُّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿١﴾».

وقوله: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبَعُوا﴾: تهديد لهم شديد، ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَتَّبِعُوا فَإِنْ مَصَرْتُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿كُلُوا وَشَبَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُعْرَبُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦]؛ ولهذا قال: ﴿وَيَلْبَسُوا الْأَمَلُ﴾ أي: عن التوبة والإنابة ﴿فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾ أي: عاقبة أمرهم.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَهَلَّا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا نَسْفِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٥﴾﴾

يخبر تعالى: أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتها ولا يتقدمون عن مدتهم. وهذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد، الذي يستحقون به الهلاك.

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ أى: الذى تدعى ذلك ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى: فى دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا ﴿ لَوْ مَا ﴾ أى: هلا ﴿ تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ ﴾ أى: يشهدون لك بصحة ما جئت به ، كما قال فرعون: ﴿ فَلَوْلَا أَنزِلْنَا عَلَيْهِ آسُورَةً مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّنِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٣]، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يُرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رِيبًا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَصَوْا عَمْرًا كَبِيرًا . يَوْمَ يُرَوُّنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى لَّهُمْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢١]، وكذا قال فى هذه الآية: ﴿ هِيَ أَنْزَلْنَا الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ . وقال مجاهد فى قوله: ﴿ مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾: بالرسالة والعذاب. ثم قرر تعالى أنه هو الذى أنزل عليه الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسَلُّكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ . وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ فى تكذيب من كذبه من كفار قريش: إنه أرسل من قبله فى الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به، ثم أخبر أنه سلك التكذيب فى قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى. قال أنس، والحسن البصرى: ﴿ كَذَلِكَ نَسَلُّكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾: يعنى: الشرك.

وقوله: ﴿ وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى: قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنهى الله الأنبياء وأتباعهم فى الدنيا والآخرة.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق: أنه لو فتح لهم باباً من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لما صدقوا بذلك، بل قالوا: ﴿ إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾ قال مجاهد: سدت أبصارنا، وقال ابن عباس: أخذت أبصارنا، وقال الكلبي: عميت أبصارنا.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَاسِيَهَا لِلنَّظِيرِ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَشْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشًا وَمَنْ لَّمْ يَرْزُقْ فِيهَا ﴿٢٠﴾ ﴾

يذكر تعالى خلقه السماء فى ارتفاعها وما زينها به من الكواكب الثوابق لمن تأملها، وكرر النظر فيها، يرى فيها من المعجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه . ولهذا قال مجاهد وقتادة: البروج

ها هنا هي: الكواكب، قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]. ومنهم من قال: البروج هي: منازل الشمس والقمر.

وجعل الشهب حرساً لها من مَرَدَّة الشياطين، لئلا يسمعوها إلى الملاء الأعلى، فمن عمرد منهم وتقدم لاستراق السمع، جاءه ﴿شهابٌ مُبِينٌ﴾ فاتفقه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه، فيأخذها الآخر، ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحاً به في الصحيح، كما روى البخاري عن أبي هريرة، يبلغُ به النبي ﷺ، قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان». قال علي، وقال غيره: صفوان يتقدم ذلك، فإذا فرغ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال: الحق، وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع، هكذا واحد فوق آخر - ووصف سفيان يده ففرج بين أصابع يده اليمنى، نَصَبَهَا بعضها فوق بعض - فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمى بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض - وربما قال سفيان: حتى تنهى إلى الأرض فتلقى على فم الساحر - أو: الكاهن - فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون: ألم يخيرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقاً؟ للكلمة التي سمعت من السماء» (١).

ثم ذكر، تعالى خلقه الأرض، ومدد إياها وتوسيمها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة. وقال ابن عباس: ﴿من كل شيء مؤزون﴾ أي: معلوم. وكذا قال سعيد بن جبيرة، وعكرمة، وقنادة وغيرهم. ومنهم من يقول: مقدر بقدر. وقال ابن زيد: من كل شيء يؤزَن ويقدر بقدر.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾: يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعاش، وهي جمع معيشة ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾: قال مجاهد: وهي الدواب والأنعام. وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام. والقصد: أنه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعاش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم فلمهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَجِرِينَ﴾ ﴿وَأَنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَسْرَتِهِمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه، يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف ﴿وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، كما يشاء وكما يريد، ولما له في ذلك من الحكمة

البالغة، والرحمة بعباده، لا على الوجوب، بل هو كتب على نفسه الرحمة. قال عبد الله [بن مسعود] :
ما من عام بأعطر من عام، ولكن الله يقسمه حيث شاء، عاماً هاهنا، و عاماً هاهنا. ثم قرأ: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ أى: تلتفح السحاب قُتُر ماء، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها. وعن عبد الله بن مسعود فى قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ قال: يرسل الريح، فتحمل الماء من السماء، ثم تَمُرُّ مَرَّ السحاب، حتى تدر كما تَدِر اللُّقْحَة. وكذا قال ابن عباس.

وقوله: ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أى: أنزلناه لكم عَذْبًا يُمكنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء لجعلناه أجاجا كما بينه الله على ذلك فى الآية الأخرى فى سورة «الواقعة»، وهو قوله: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ. لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠]، وفى قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ لِيَسْمُونَ ﴾ [النحل: ١٠].

وقوله: ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾: قال سفيان الثوري: بمانعين. ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معينا وناييع فى الأرض، ولو شاء تعالى لاغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبا، وحفظه فى العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم فى طول السنة، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ﴾: إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذى أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يعيدهم كلهم ليوم الجمع. وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

ثم قال مخبراً عن تمام علمه بهم، أولهم وآخرهم: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُتَأَخِّرِينَ ﴾: قال ابن عباس: المستقدمون: كل من هلك من لدن آدم، عليه السلام، والمتأخرون: من هو حى ومن سيأتى إلى يوم القيامة. وروى نحوه عن عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وغيرهم. وهو اختيار ابن جرير.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿١٥﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: المراد بالصلصال هاهنا: التراب اليابس. والظاهر أنه كقول تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ. وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥]. وعن مجاهد أيضاً: الصلصال: المتن. وتفسير الآية بالآية أولى.

وقوله: ﴿ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ أى: الصلصال من حمأ، وهو: الطين. والمسنون: الأملس، ولهذا روى عن ابن عباس: أنه قال: هو التراب الرطب. وعن ابن عباس، ومجاهد، أيضاً: أن الحمأ المسنون هو المتن. وقيل: المراد بالمسنون هاهنا: المصبوب.

وقوله: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى: من قبل الإنسان ﴿ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾: هى السموم التى تقتل، وعن ابن عباس: أن الجانَّ جُلِّقَ من لهب النار، وفى رواية: من أحسن النار. وقد ورد فى الصحيح:

«خَلَقْتَ الْمَلَكَةَ مِنْ نُورٍ، وَخَلَقْتَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخَلَقَ بَنُو آدَمَ مِمَّا وَصَفَ لَكُمْ» (١) ومقصود الآية: التنبيه على شرف آدم، عليه السلام، وطيب عنصره، وطهارة محتده.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سُجَّدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةَ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا أَيْلَيسَ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

يذكر تعالى تنويبه بذكر آدم في ملائكة قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمره الملائكة بالسجود له. ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حسناً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ كقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الاحزاب: ١٧]، وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كُذِّبَتْ عَلَيْهِ فَمِنْ أَخْرَىٰ إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَأَحْسَنُ مِّنْ ذَلِكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿ قَالَ فَأَخْرِجْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع، بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملائكة الأعلى، وأنه ﴿رَجِيمٌ﴾ أي: مرجوم. وأنه قد اتبعت لعنة لا تزال متصلة به، لاحقة له، ستواتره عليه إلى يوم القيامة. وأنه لما تحقق الغضب الذي لا مردَّ له، سأل من تمام حسده لأدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث وأنه أحجب إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً، فلما تحقق النظرة قبحه الله:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَمَّا سَمِعَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ لِقَابِ رَبِّهَا جَزَاءً مَّقْسُومًا ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعنه أنه قال للرب: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ قال بعضهم: أقسم يا غوايه الله له. قلت: ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أي: للذرية آدم، عليه السلام ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أحجب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها، وأورهم إليها، وأرهبهم إزعاجاً ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي: كما أغويتني وقدرت عليّ ذلك ﴿أَجْمَعِينَ﴾. إلا عبادك منهم المخلصين ﴿كما قال:﴾ ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كُذِّبَتْ عَلَيْهِ فَمِنْ أَخْرَىٰ إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَأَحْسَنُ مِّنْ ذَلِكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: مرجعكم كلكم إلي، فأجازيكم

بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِغُ صَادٍ﴾ [الفجر: ١٤]. وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة كما قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَسَدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَرِئَاسٌ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: الذين قدرت لهم الهداية، فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعْتِ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ استثناء منقطع.

وقوله: ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَإِنَّهُ لَمَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ أي: قد كتب لكل باب منها جزء من اتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه - أجازنا الله منها - وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في درك بقدر فعله. وقال عكرمة: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: سبعة أطباق. وقال ابن جرير: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الحجيم، ثم الهاوية. وروى عن ابن عباس، نحوه. وقال قتادة: هي والله منازل بأعمالهم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١﴾ آذِنُواهَا بِسَلَامٍ وَأَمِينٍ ﴿٢﴾ وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ ﴿٣﴾ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٥﴾ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٧﴾﴾

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة، وأنهم في جنات وعيون.

وقوله: ﴿آذِنُواهَا بِسَلَامٍ﴾ أي: سالين من الآفات، مسلماً عليكم ﴿آمِينَ﴾ من كل خوف وقرع، ولا تخشوا من إخراج، ولا انقطاع، ولا فناء.

وقوله: ﴿وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ﴾ إخواناً على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٣﴾ عن أبي امامة قال: لا يدخل مؤمن الجنة حتى يتزع الله ما في صدره من غل، حتى يتزع منه مثل السبع الضاري. وهذا موافق لما في الصحيح، أن أبا سعيد الخدري حدثهم: أن رسول الله ﷺ قال: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، يُحِبُّونَ عَلَى قِطْرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِهِمْ، مِظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هَدُّبُوا وَتَقَوَّأَ، أَذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ» (١). وروى ابن جرير عن محمد بن سيرين: استأذن الأشرع على علي، رضى الله عنه، وعنده ابن لطلحة، فحبسه ثم أذن له. فلما دخل قال: إني لأراك إنما احتبستني لهذا؟ قال: أجل. قال: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني؟ قال: أجل، إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى: ﴿وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ﴾ إخواناً على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٣﴾. وقال أبو صالح في قوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قال: هم عشرة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مسعود، رضى الله عنهم أجمعين.

(٢) ابن جرير في التفسير (٢٦/١٤).

(١) البخاري (٦٥٣٥).

وقوله: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾: قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض. روى ابن أبي حاتم عن زيد بن أبي أوفى قال: مخرج علينا رسول الله ﷺ، فتلوا هذه الآية: ﴿إِنزُورُنَا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ في الله، ينظر بعضهم إلى بعض» (١). وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يعني: المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين: «إن الله أمرني أن ابشر خديجة بيت في الجنة من نَصَبٍ، لا صخب فيه ولا نصب» (٢).

وقوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، كما قال الله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخْرُونَ عَنْهَا حَرًّا﴾ [الكهف: ١٠٨].
وقوله: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾: أى: أخير يا محمد عبادي أنى ذو رحمة وذو عقاب أليم، وهى دالة على مقاس الرجاء والخوف.

﴿وَنَبِّئَهُمْ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿١٠٦﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿١٠٧﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ نُبَشِّرُونَ ﴿١٠٨﴾ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَانِطِينَ ﴿١٠٩﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَتِ رَبِّهِ إِلَّا الصَّاوِلُونَ ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى: وأخبرهم يا محمد عن قصة «صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ» والصيف: يطلق على الواحد والجمع، وكيف «دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ» أى: خائفون. وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم ضيافة، وهو العجل السمين الحنيد. «قَالُوا لَا تَوْجَلْ» أى: لا تخف «وبشروه بغلام عليم» [الذريات: ٢٨] وهو إسحاق، عليه السلام، كما تقدم فى سورة هود. ثم قال متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد: «أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ نُبَشِّرُونَ» فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة «قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَانِطِينَ» فأجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأست امراته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿١١٢﴾ إِلَّا آءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُّجْرُومٌ أجمعين ﴿١١٣﴾ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا ۖ إِنَّمَا لَعْنُ الْغَنَابِرِ ﴿١١٤﴾﴾

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم، عليه السلام، لما ذهب عنه الروح وجاءته البشرى: إنه شرع يسألهم عما جاؤوا له، فقالوا: «إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ» يعنون: قوم لوط. وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امراته فإنها من المهلكين؛ ولهذا قالوا: «إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لَعْنُ الْغَنَابِرِ» أى: الباقين للمهلكين.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿١١٥﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرَّمُونَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١١٧﴾ وَأَيُّنَا بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١١٨﴾﴾

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة فى صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره، قال: «إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرَّمُونَ. قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ» يعنون: بمنابهم وهلاكهم ودمارهم الذى كانوا

يشكون في وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٨]. وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به، من نجاته وإهلاك قومه.

﴿ فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ ﴿١٠﴾
 وذكر تعالى عن الملائكة أنهم امرؤه أن يسرى بأهله بعد مضي جانب من الليل، وإن يكون لوط، عليه السلام، يمشى وراءهم، ليكون أحفظ لهم. وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشى في الغزو، وإنما يكون ساقه، يزجي الضعيف، ويحمل المنقطع.

وقوله: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أى: إذا سمعتم الصيحة بالقرم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبل، ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ ﴾ أى: تقدمنا إليه في هذا ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِفِينَ ﴾ أى: وقت الصباح، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [مرد: ٨١].

﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ﴿١١﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيِّقِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿١٢﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُوا ﴿١٣﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٥﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٦﴾

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين، ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيِّقِي فَلَا تَفْضَحُونِ . وَأَتَقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله كما في سياق سورة هود، وأما هاهنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم . ولكن الواو لا تقتضى الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿ أَوْلَمْ نَنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: أو ما نهيناك أن تضيف أحدا؟ فأرشدهم إلى نساءهم، وما خلق لهم ربه منهن من الفروج الباحة. وقد تقدم أيضا القول في ذلك، بما أغنى عن إعادته.

هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يصبحهم من العذاب المستقرا ولهذا قال تعالى لنيه ﷺ: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾، أقسم تعالى بحياة نبيه ﷺ وفى هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع وجاء عريض. قال ابن عباس: ما خلق الله وما ذرا وما برا نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا إنهم لفي سكرتهم يعمهون. وقال قتادة: ﴿ لَفِي سَكْرَتِهِمْ ﴾ أى: في ضلالتهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أى: يلعبون. وقال ابن عباس: ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾: لعيشك ﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ قال: يتمادون.

﴿ فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴾ ﴿١٧﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنَ السَّجَابِيلِ ﴿١٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّصِيرٌ ﴿٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى: ﴿ فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ ﴾، وهى ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس، وهو

طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عَنَانِ السماء ثم قلبها، وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم. وقد تقدم الكلام على السجيل في سورة هود بما فيه كفاية.

وقوله: ﴿إِن لِّى ذَلِكُ لآيَاتٍ لِّلْمُتَّعِبِينَ﴾ أى: إن آثار هذه النقم ظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿لِّلْمُتَّعِبِينَ﴾ قال: المتفرسين. وعن ابن عباس: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبين.

وقوله: ﴿وَإِنهَا لَنَسِيرٌ يُعْجِبُ﴾ أى: وإن قرية سدوم التى أصابها ما أصابها من القلب الصورى والعنوى، والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة ممتدة خيثة ليطريق مَهَجٍ مسالكة، مستمرة إلى اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

وقال مجاهد والضحاك: ﴿وَإِنهَا لَنَسِيرٌ يُعْجِبُ﴾ قال: معلّم. وقال قتادة: بطريق واضح. وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد.

وقوله: ﴿إِن لِّى ذَلِكُ لآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: إن الذى صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإغاثتنا لوطاً وأهله، لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَطَائِفِينَ ﴿١٤٦﴾ فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّمَا لِإِبْرَاهِيمَ ﴿١٤٧﴾﴾

أصحاب الأيكة: هم قوم شعيب. قال الضحاك، وقاتدة، وغيرهما: الأيكة: الشجر اللثغ. وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، وتقصهم الكيال والميزان. فانقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بعُدّهم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لِإِبْرَاهِيمَ جُبِينَ﴾ أى: طريق سين. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: طريق ظاهر؛ ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته لإياهم: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُّوطٍ يَتَّبِعُونَ بِعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٨﴾ وَهَآئِنْتُمْ مَّآئِنْتُمْ فَكَانُوا عَنَّا مُعْرِضِينَ ﴿١٤٩﴾ وَكَانُوا يَنْجُونَ ﴿١٥٠﴾ مِنَ الْجِبَالِ يَوْتًا أَمِينًا ﴿١٥١﴾ فَأَحْذَرْتُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴿١٥٢﴾ فَأَعْتَقَ عَنْهُمْ تَابًا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

أصحاب الحجر هم: ثمود الذين كذبوا صالحاً نبياً، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين؛ ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين.

وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التى أخرجها الله لهم يدعاه صالح من صخرة صماء فكانت تسرح في بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم. فلما عتوا وعقروها قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدَّ غَيْرَ مَكْدُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

وذكر تعالى: أنهم ﴿كَانُوا يَنْجُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْتًا أَمِينًا﴾ أى: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشراً ويطراً وعبثاً، كما هو المشاهد من صنعهم في بيوتهم بوادى الحجر، الذى مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فقتع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت المعذنين إلا أن

تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فبكاوا خشية ان يصيبكم ما أصابهم»^(١).

وقوله: ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصِيبِينَ ﴾ أى: وقت الصباح من اليوم الرابع ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى: ما كانوا يستغلونه من رزوعهم وثمارهم التي ضنوا بماتها من الناقة، حتى عقروها لثلا تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الاموال، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى: بالعدل ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ ﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ثم اخبر نبيه بقيام الساعة، وإنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصصح الجميل عن المشركين، في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كما قال تعالى: ﴿ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٩]. وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال. وهو كما قالا، فإن هذه مكة، والقتال إنما شرع بعد الهجرة.

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾: تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذى لا يعجزه خلق ما يشاء، وهو العليم بما تمزق من الاجساد، وتفرق في سائر انظار الارض، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدَأُ الْمَلَكُوتَ كُلَّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٨١ - ٨٣].

﴿ وَقَدَرْنَا لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَخَطًا وَكَفَّرْنَا بِالسَّاعَةِ ﴾ لا تمدن عينيكَ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى لنبيه: كما آتيناك القرآن العظيم، فلا تنظرن إلى الدنيا وريستها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لفتتهم فيه، فلا تبطلهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزنا عليهم في تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥] أى: أكن لهم جانبك، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقد اختلف في السبع المثاني: ما هي؟ فقال ابن مسعود وابن عمر وغير واحد: هي السبع الطول. يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والانعام، والاعراف، ويونس. وقال مجاهد: هي السبع الطول. ويقال: هي القرآن العظيم. والقول الثانى: أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. روى ذلك عن عمر وعلى وابن عباس. قال ابن عباس: والبسمة هي الآية السابعة، وقد خصكم الله بها. وقال قتادة: ذكر لنا أبن فاتحة الكتاب، وأنهن يثنين في كل قراءة. وفي رواية: في كل ركعة مكتوبة أو

تطوع. واختاره ابن جرير، واحتج بالاحاديث الواردة في ذلك، وقد قدمناها في فضائل سورة «الفاتحة» في أول التفسير، والله الحمد. وقد أورد البخاري هاهنا حديثين:

أحدهما: عن أبي سعيد بن المعلی قال: مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟». فقلت: كنت أصلي. فقال: «الم يقل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟» فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكرته فقال: «﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(١).

والثاني: عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «م القرآن هي: السبع المثاني والقرآن العظيم»^(٢). فهنا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطوك بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُثَابَهاً مَثَانِي ﴾ [الزمر: ٢٣]، فهو مثاني من وجه، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه، عليه السلام، لما سُئِلَ عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم.

وقوله: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية. عن ابن عباس: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه، وقال مجاهد: ﴿ إِلَىٰ مَا مَتَّعَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾: هم الاغنياء.

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ ﴿ قَوْلِيكَ لَنَسْتَأْتِيَنَّهِنَّ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ بين التذارة، نذير للناس من عذاب اليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسولها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام. وقوله: ﴿ الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أي: المتحالفين، أي: تحالفوا على مخالفة الانبياء وتكذيبهم وأذاهم، كما قال تعالى إخباراً عن قوم صالح أنهم: ﴿ قَالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَهُنَّ وَأَهْلَهُنَّ: [النمل: ٤٩]، أي: نقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا: تحالفوا، ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتٍ ﴾ [النمل: ٣٨]، ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، ﴿ أَهْلُوا الَّذِينَ اقْسَمْتُمْ لَا يَنْتَلِهِمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ [الأعراف: ٤٩]، فكانهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه، فسموا مقتسمين.

وقوله: ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ أي: جزؤوا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض روى البخاري عن ابن عباس: ﴿ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ قال: هم أهل الكتاب، جزؤوه أجزاء، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه^(٣). وروى عن ابن عباس أيضاً: ﴿ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض: اليهود والنصارى^(٤). وقال ابن عمر في قوله: ﴿ لَنَسْتَأْتِيَنَّهِنَّ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قال:

(١) البخاري (٤٧٠٥).

(٢) البخاري (٤٧٠٤).

(٣) البخاري (٤٧٠٣).

(٤) البخاري (٤٧٠٦).

عن لا إله إلا الله. وقاله مجاهد. وقال أبو العالية: يسأل العباد كلهم عن خَلْتين يوم القيامة، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين. وقال ابن عيينة: عن عمك، وعن مالك. وقال ابن عباس: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسَأْتُهُمُ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، ثم قال: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ (الرحمن: ٣٩) قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهِرِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَفْئِدَةً يَبْغِي صُدُورِكُمْ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً رسولهُ ﷺ بإبلاغ ما بعث به وإنفاذه والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أى: أمضه. وفى رواية: افعل ما تؤمر. وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن فى الصلاة. وقال عبد الله بن مسعود: ما زال النبى ﷺ مستخفياً، حتى نزلت: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾، فخرج هو وأصحابه.

وقوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهِرِينَ ﴾ أى: بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ﴿ وَدُوا لَوْ تَدْعُهُمْ فَيَذَنُونَ ﴾ [القلم: ٩]، ولا تخفهم؛ فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَةَ اللَّهِ وَبَعْضُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقوله: ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾: تهديد شديد، ووعد أكيد، لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَفْئِدَةً يَبْغِي صُدُورِكُمْ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ أى: وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك انقباض وضيق صدر فلا يهدنك ذلك، ولا يشينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل على الله فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسيحه وعبادته التى هى الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى.

وقوله: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾: قال سالم بن عبد الله بن عمر: الموت، والدليل على ذلك قوله تعالى [إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ. حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾] [المدثر: ٤٦-٤٧]. وفى الصحيح عن أم العلاء، أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون - وقد مات - قلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمهم؟» فقلت: أبى وأمى يا رسول الله، فمن؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإنى لأرجو له الخير» (١).

ويستدل من هذه الآية الكريمة - وهى قوله: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ - على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً فيصلى بحسب حاله، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن عمران بن حصين، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن

لم تستطع فعلى جنب^(١).

ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء، عليهم السلام، كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. وإنما المراد باليقين هاهنا الموت، كما قدمناه. والله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها .